

عظة حول يوم الدينونة الرهيب وحلم نبوخذنصر

القديس لوقا رئيس أساقفة سيمفروبول وسائر القرم

نقلتها إلى العربية أسرة التراث الأرثوذكسي

في العصور القديمة جداً، حكم الطاغية القوي نبوخذنصر في بابل، وأخضع العديد من ممالك الأرض. في إحدى الليالي، رأى حلمًا فظيماً، مما أزعجه كثيراً. لكنه استيقظ في الصباح ونسي هذا الحلم تماماً وأمر باستدعاء جميع السحرة والمشعوذين والعرافين والحكماء إليه. وطالهم بشرح حلمه له. لكن، بالطبع، لا يمكن لأحد أن يعرف ويقول ما حلم به الملك، ووعدوه بتفسير حلمه فقط إذا أخبرهم به بنفسه.

فغضب نبوخذنصر غضباً شديداً وأمر بإبادة جميع الحكماء والمشعوذين والسحرة في مملكته. وقد علم بذلك النبي دانيال، الذي كان آنذاك في السبي البابلي مع كل شعب إسرائيل. وكان هو أيضاً في خطر الموت. لكن الله كشف له حلم الملك ومعناه. وظهر أمام الطاغية الرهيب نبوخذنصر وأخبره بحلمه: "«أَنْتِ أَيُّهَا الْمَلِكُ كُنْتِ تَنْظُرِي وَإِذَا بَتَّمْتِ أَلْعَظِيمِ. هَذَا التَّمْتَالُ الْعَظِيمُ الْبَيْئُ جِدًّا وَقَفَّ قُبَالَتِكَ، وَمَنْظَرُهُ هَائِلٌ. رَأْسُ هَذَا التَّمْتَالِ مِنْ ذَهَبٍ جَيِّدٍ. صَدْرُهُ وَذِرَاعَاهُ مِنْ فِضَّةٍ. بَطْنُهُ وَقَخْدَاهُ مِنْ نَحَاسٍ. سَاقَاهُ مِنْ حَدِيدٍ. قَدَمَاهُ بَعْضُهُمَا مِنْ حَدِيدٍ وَبَعْضُهُ مِنْ حَرْفٍ. كُنْتِ تَنْظُرِي إِلَى أَنْ قُطِعَ حَجَرٌ بِيَدَيْنِ، فَضَرَبَ التَّمْتَالُ عَلَى قَدَمَيْهِ اللَّتَيْنِ مِنْ حَدِيدٍ وَحَرْفٍ فَسَحَقَهُمَا. فَانْسَحَقَ حِينَئِذٍ الْحَدِيدُ وَالْحَرْفُ وَالنُّحَاسُ وَالْفِضَّةُ وَالذَّهَبُ مَعًا، وَصَارَتْ كَعَصَافَةِ الْبَيْدَرِ فِي الصَّيْفِ، فَحَمَلَتْهَا الرِّيحُ فَلَمْ يُوَجَدْ لَهَا مَكَانٌ. أَمَّا الْحَجَرُ الَّذِي ضَرَبَ التَّمْتَالُ فَصَارَ جَبَلًا كَبِيرًا وَمَلَأَ الْأَرْضَ كُلَّهَا.» (دانيال ٢: ٣١-٣٥).

وقد فسّر دانيال النبي حلم نبوخذنصر هذا بأنه تاريخ الممالك التي ستقوم بعد مملكته التي تظهر في الحلم على أنها أعلى كل الممالك، مثل رأس التمثال الذهبي. وستتبعها ممالك أخرى قوية جداً، مثل الفضة والنحاس والحديد، مثل صدر وبطن وفخذي صنم مصنوع من النحاس الذي كان ذا قيمة كبيرة جداً في العصور القديمة؛ كما ستقوم ممالك قوية كالحديد الذي هو أقوى المعادن وكانت قوائم الصنم حديدية، فيما أصابع القدمين كانت مصنوعة من خليط من الحديد والطين، هي صورة الممالك الأضعف.

وعلى هذه البقعة الضعيفة من الصنم، التي تصوّر الممالك اللاحقة الضعيفة، ضرب حجر، فانشقّ الجبل من دون مشاركة أيدي، وانهار الصنم الرهيب، وتكسّر إلى قطع صغيرة كالغبار الذي تذرّيه الريح. والحجر، غير المقطوع باليد، انفصل بقوة الله عن "الجبل غير المقطوع" - السيدة العذراء مريم - وأصبح جبلاً ضخماً يغطي الأرض كلها.

هكذا هي قوة المسيحية الإلهية التي غزت جميع الشعوب الوثنية.

إن تفسير حلم نبوخذنصر قد أعطاه الروح القدس للنبي العظيم دانيال، وكما نعلم من تاريخ البشرية اللاحق، فقد تحقّق بشكل دقيق. كان المعبود الضخم والرهيب صورةً للعديد من الممالك والدول التي كانت تشترك برذيلة خطيرة، وكلها كانت فيها نقطة ضعف واحدة - الأقدام، هي جزء من الحديد وجزء من الطين. ونقطة الضعف هذه كانت غياب الحقيقة.

إن لكلمات الأنبياء العظماء، الموحى بها من الروح القدس، أهمية أبدية. وإلى الآن يقف أمام أعيننا العقلية صنم رهيب كان يحلم به الملك نبوخذ نصر: إلى الآن ما زلنا نرى في التاريخ القريب كما في الأحداث المعاصرة أن الدول، إذ ترغب في السيطرة على العالم كله، تعتمد على قوة الذهب والفضة، على القوة العسكرية لدروعهم، قوة الأفخاذ الحديدية، شاردين في كل الأرض ودائسين الشعوب الضعيفة. لكننا نعلم من النبي دانيال أن أقدامهم الرهيبة مصنوعة من الطين وجزء يسير من الحديد.

سوف تأتي هذه الدول الجبارة إلى نهاية بائسة عندما يأتي يوم القيامة العظيم المجيد، عندما يضرب "الحجر المقطوع بدون أيدي" جميع عمال الإثم، من الدول بأكملها إلى الأفراد، على الأرجل الطينية لا بقوة الإنسان مبعداً إياهم عن "الجبل غير المقطوع".

عندها سوف تمهار كل قوة الإنسان وقدرته. من ثم يُقام جميع الموتى بقوة الحجر غير المقطوع - ربنا يسوع المسيح - وتبدأ دينونته الرهيبة لكل العالم. فيأمر ملائكته أن يفرقوا جميع الذين يقدمون إلى الدينونة، فيجعلوا البعض عن يمينه والبعض عن يساره، ويقول للواقفين عن اليمين: "تَعَالَوْا يَا مُبَارِكِي أَبِي، رَثُوا الْمَلَكُوتَ الْمُعَدَّ لَكُمْ مُنْذُ تَأْسِيسِ الْعَالَمِ. لِأَنِّي جُعْتُ فَطَاعْتُمُونِي. عَطِشْتُ فَسَقَيْتُمُونِي. كُنْتُ غَرِيباً فَأَوَيْتُمُونِي. غُرِياناً فَكَسَوْتُمُونِي. مَرِيضاً فَزَرْتُمُونِي. مَحْبُوساً فَأَتَيْتُمُونِي. فَيُجِيبُهُ الْأَبْرَارُ حِينَئِذٍ قَائِلِينَ: يَا رَبُّ، مَتَى رَأَيْنَاكَ جَائِعاً فَطَاعْتُنَاكَ، أَوْ عَطِشْنَا فَسَقَيْتَنَا؟ وَمَتَى رَأَيْنَاكَ غَرِيباً فَأَوَيْنَاكَ، أَوْ غُرِياناً فَكَسَوْنَاكَ؟ وَمَتَى رَأَيْنَاكَ مَرِيضاً أَوْ مَحْبُوساً فَأَتَيْنَا إِلَيْكَ؟ فَيُجِيبُ الْمَلِكُ وَيَقُولُ لَهُمْ: الْحَقُّ أَقُولُ لَكُمْ: بِمَا أَنْتُمْ فَعَلْتُمُوهُ بِأَحَدٍ إِخْوَتِي هؤُلَاءِ الْأَصَاغِرِ، فِي فَعَلْتُمْ. ثُمَّ يَقُولُ أَيْضاً لِلَّذِينَ عَنِ الْيَسَارِ: اذْهَبُوا عَنِّي يَا مَلَاعِينُ إِلَى النَّارِ الْأَبَدِيَّةِ الْمُعَدَّةِ لِإِبْلِيسَ وَمَلَائِكَتِهِ، لِأَنِّي جُعْتُ فَلَمْ تُطْعِمُونِي. عَطِشْتُ فَلَمْ تَسْقُونِي. كُنْتُ غَرِيباً فَلَمْ تَأْوُونِي. غُرِياناً فَلَمْ تَكْسُونِي. مَرِيضاً وَمَحْبُوساً فَلَمْ تَزُورُونِي. حِينَئِذٍ يُجِيبُونَهُ هُمْ أَيْضاً قَائِلِينَ: يَا رَبُّ، مَتَى رَأَيْنَاكَ جَائِعاً أَوْ عَطِشْنَا أَوْ غُرِياناً أَوْ غَرِيباً أَوْ مَرِيضاً أَوْ مَحْبُوساً وَلَمْ نَخْدِمَكَ؟ فَيُجِيبُهُمْ قَائِلاً: الْحَقُّ أَقُولُ لَكُمْ: بِمَا أَنْتُمْ لَمْ تَفْعَلُوهُ بِأَحَدٍ هؤُلَاءِ الْأَصَاغِرِ، فِي لَمْ تَفْعَلُوا. فَيَمْضِي هؤُلَاءِ إِلَى عَذَابٍ أَبَدِيٍّ وَالْأَبْرَارُ إِلَى حَيَاةٍ أَبَدِيَّةٍ" (متى ٢٥: ٣٤-٤٦).

كما ترون، فإن الرب القدير، قاضي العالم الرهيب، سوف يحكم على جميع الأمم بمعاييرين أو علامتين، لا بل بعلامة واحدة فقط هي رمز للحقيقة الأسمى، لأنها لا تفصل عن المحبة الكاملة. من أجل أعمال الحق والمحبة، سوف يبرر أولئك الذين على اليمين؛ وعلى أعمال الإثم والكرهية لله والناس سوف يدين الواقفين على اليسار.

سيكون بين الأبرار والمباركين كثير من الناس العاديين، الذين قال عنهم الرسول بولس: "ولكن اختار الله جَهْلَ الْعَالَمِ لِيُخْزِيَ الْحُكَمَاءَ. وَاخْتَارَ اللَّهُ ضُعْفَاءَ الْعَالَمِ لِيُخْزِيَ الْأَقْوِيَاءَ. وَاخْتَارَ اللَّهُ أَدْنِيَاءَ الْعَالَمِ وَالْمُزْدَرَى وَغَيْرَ الْمُوجُودِ لِيُبْطِلَ الْمُوجُودَ" (١ كورنثوس ١: ٢٧-٢٨).

هؤلاء الناس البسطاء ليس عندهم أي شيء مشترك مع الصنم الرهيب الذي ظهر في حلم نبوخذنصر. عقلهم غير مثقف، وغير متعلم، ولا يشبه رأس الصنم الذهبي. ليس لديهم قوة المال الجبارة، ولا قوة النحاس والحديد وقدرتهما، وأيضاً ليس لديهم أقدام من طين. إن كيانهم كله مكوّن من لحم بشري، بالطبع لن يضره الحجر غير المقطوع بيد، الذب لا يسحق إلا الكذب.

إنهم أناس طيبون وبسطاء أحبوا شمس الحق، الرب يسوع المسيح، من كل قلوبهم.

ليمنحنا ربنا يسوع المسيح الفرح الأبدي لنكون بين الذين لا يجد فيهم إثماً.

وليحسبنا أيضاً من بين جماعة غير الحكماء والمحتقرين، لا من الذين أبيدوا من الحكماء والأقوياء. آمين.

* عظة أَلْقِيَتْ فِي أَحَدِ مَرَفَعِ اللَّحْمِ سَنَةَ ١٩٥٨.

Source: St. Luke of Simferopol . Homily on the Terrible Day of Judgment and the Dream of Nebuchadnezzar. Mystagogy Resource Center, February 19, 2023. <https://www.mystagogyresourcecenter.com/2023/02/homily-on-terrible-day-of-judgment-and.html>